مفهوم الحداثة عند الغرب والعرب

يتفق جل الباحثين على أن مصطلح "الحداثة" يعد من المصطلحات المعقدة والمبهمة، لتنوع المجالات التي يستخدم فيها والاختلاف الكبير في الأطر الفكرية التي تحدد معناه. فالحداثة ليست مجرد فكرة واحدة أو تفسير واحد، بل تتعدد أبعادها بحسب السياقات التي تظهر فيها، سواء في الفلسفة، الأدب، الفن، العلوم الاجتماعية، أو السياسة... كما أن فهمها يتأثر بالزمان والمكان، ما يجعلها تختلف باختلاف الثقافات والتوجهات الفكر؛ وبمعنى أدق الحداثة ليست مجرد مفهوم ثابت، بل هي ساحة حيوية للتجريب والتغيير، تعتمد على السياق الذي يتم فيه استخدامها.

1- الحداثة في اللغة والاصطلاح:

الحداثة لغويا في المعجم العربي من " الحديث نقيض القديم، والحُدوث: نقيض القُدمة. حدَث الشيءُ حدوثًا وحداثةً وأحدَثَه فهو مُحدثٌ وحديث وكذلك استحداثه" (لسان العرب ابن منظور) و" شاب حَدَثُ السن. والحديث الجديد من الأشياء" (التهذيب الأزهري).؛ والملاحظ من هذا التحديد المعجمي ارتباط الحداثة بالجدة المناقضة للقدم.

أما في المعاجم الأجنبية، فيمكن رصد مصطلحين مرتبطين بمفهوم الحداثة والمعاصرة هما "Modernism" و"Modernité"؛ حيث يتفق كل من معجم Le Robert والموسوعة الفرنسية Universalis في تعريف "Modernité" على أنها صفة تُميز كل ما هو جديد وحديث، خصوصًا في ميدان الفن. كما يشتركان في تعريف "Modernism" على أنه الاتجاه المستمر نحو البحث عن كل ما هو حديث والتمسك به بكل الطرق الممكنة. إضافة إلى ذلك، يتضمن كلا المعجمين بعدا دينيا لهذا المصطلح، حيث يُعرف "Modernism" كحركة مسيحية تدعو إلى تحديث المعتقدات والعقائد التقليدية لتتماشى مع التفسيرات المعاصرة للكتاب المقدس.

أما اصطلاحا فترتبط الحداثة بحركات القطيعة والمفارقة وابتداع النمط "الخاص" في التفكير والكتابة والعيش. يقول جون بودريار Jean Baudrillard "ليست الحداثة مفهوما سوسيولوجيا أو مفهوما تاريخيا بحصر المعنى، وإنما هي صيغة مميزة للحضارة تعارض صيغة التقليد" وتشمل هذه المعارضة الجانب التقني، والاقتصادي والسياسي والاجتماعي والفلسفي والأدبي...الخ. وبمعنى آخر يقترن مفهوم الحداثة بفعل الردة (الحداثة ردة متحولة)، والتفلت من السائد والتمرد الدائم على كل ما هو آني؛ لأنها ذلك السؤال المتجدد في كل حين، الذي يرفض الانصياع والخضوع لأي جواب، فهو -دائما- مهاجر لا يكاد يحط الرحال بمكان حتى ينتقل إلى غيره في رحلة دائمة، فهو فلوت يأبى أن يمسك به، لأن في إمساكه قتلا له وقضاء على حريته، هو الحاضر/ الغائب"

2- الحداثة عند الغرب:

ظهرت الحداثة في العالم الغربي كنتيجة طبيعية للتيه الذي مرّت به أوروبا منذ العصور الوثنية عند اليونان والرومان، مرورا بعصر الظلمات، وصولا إلى العصور اللاحقة التي شهدت تصارع المذاهب والفلسفات المتناقضة. يمكننا القول

إن الحداثة تمثل تحركا فكريا وثقافيا مستمرا عبر فترات متعاقبة مليئة بالصراع والتجديد. ومن أوائل مصادر الحداثة تلك الحركات التي ظهرت في العصور الوسطى، والتي طالبت بثورة على الكنيسة ورجال الدين، داعية إلى التخلص من هيمنة المؤسسة الدينية على الفكر والحياة اليومية.

أما على الصعيد الأدبي فيتفق جل الباحثين على أن الشاعر الفرنسي شارل بودلير Charles Baudelaire ، صاحب ديوان "أزهار الشر"، قد كان من الأوائل الذين عبّروا عن الأفكار الحداثية؛ حيث قدم بودلير في أعماله أسلوبًا جديدًا يرفض التقاليد الأدبية القديمة، ويعكس قلق الإنسان الحديث، مع طرح مفاهيم جديدة للجمال والحياة.وبمعنى أدق تناول التوتر بين الفرد والمجتمع، منتقدًا القيم التقليدية، مما جعل أعماله حجر الزاوية للفكر الحداثي الذي تطور فيما بعد في الأدب والفن والفلسفة. ويعرف بودلير الحداثة بقوله: "ما أعنيه بالحداثة هو العابر والهارب والعرضي، إنها نصف الفن الذي يكون نصفه الآخر هو الأبدي الثابت"

أما الكاتب الفرنسي غوستاف فلوبير Flaubert فيربط مفهوم الحداثة بثنائية الماضي والحاضر، وكيفية ارتباطها بالإبداع والفن. ومن هذا المنطلق تعد الحداثة تعصبا للحاضر ضد الماضي ؛ بمعنى أن الوعي الحداثي ليس تشييعا لسلطة ماضوية وحنينا إلى أصل تليد وحقبة ذهبية، بل هو تمجيد للحاضر وانفتاح على الآتي"

وفقا لهذا التصور، تتجاوز الحداثة التعلق بالتقاليد والعادات القديمة، وتدعو إلى الاحتفاء بالإبداع الفني الذي يعكس التغيرات الاجتماعية والثقافية الحالية. فهي، من وجهة نظر فلوبير، دعوة لتحرير الفكر والفن من قيود الماضي، والسعي نحو تجديد مستمر لا يعتمد على استنساخ الماضي، بل على فهم الواقع والتفاعل معه بشكل مبدع وجديد. هذه النظرة تجعل الحداثة تمثل طاقة حية متجددة، تتطلع إلى المستقبل بدلاً من التأمل في أمجاد الماضي.

يعرف الأمريكي مارشال بيرمان Marshall Berman الحداثة بقوله "... فمعنى أن نكون محدثين هو أن نجد أنفسنا في مناخ يعدنا بالمغامرة والبهجة والنماء وتغيير أنفسنا والعالم، وفي الوقت نفسه يهددنا بتدمير كل ما لدينا، كل ما نعرف، كل ما نحن عليه"

وخلاصة القول إن الحداثة الغربية ترفض الثوابت التقليدية مثل الأديان والعادات والتقاليد، معتبرة إياها قيودًا تَحُد من حرية الفرد وتمنعه من تطوير شخصيته. تقوم الحداثة على فكرة التغيير المستمر والابتكار، وتشجع على الانفتاح على كل جديد يمكن أن يسهم في تطور الإنسان والمجتمع، مع التأكيد على أن التمسك بالموروثات القديمة يعوق هذا التطور.

3- الحداثة عند العرب:

انتقل مصطلح الحداثة إلى الثقافة العربية في النصف الثاني من القرن العشرين، حيث بدأ المفكرون والأدباء العرب في تبني هذه المفاهيم الفكرية الجديدة في سياق مجتمعاتهم. مع هذا الانتقال، أصبح مصطلح "الحداثة" في الثقافة العربية يحمل معان متنوعة، حيث ارتبط بمحاولة تجديد الفكر العربي من خلال التأثر بالمفاهيم الغربية مثل الحرية، والعقلانية، والتعددية الفكرية...الخ

أما على الصعيد الأدبي فقد ظهرت الحداثة الأدبية العربية على شكل تحوّل كبير في أساليب الكتابة، حيث كان الأدب العربي في البداية متمسكًا بالقوالب التقليدية مثل القصيدة العمودية التي تتبع القافية والوزن الثابت. ومع مرور الوقت، بدأ يظهر الشعر الحر الذي لا يلتزم بهذه القيود، وهو نوع من الشعر الذي تبناه العديد من الشعراء في القرن العشرين، ليعكس قضايا العصر ويعبر عن مشاعر وأفكار جديدة تتناسب مع التغيرات الاجتماعية والسياسية.

من أبرز المحطات التي ساعدت في نشر الحداثة الأدبية في العالم العربي كانت مجلة "شعر "التي أُسِّست في 1957في بيروت على يد يوسف الخال الذي يعرّف الحداثة بقوله: " الحداثة في الشعر إبداع وخروج به على ما سلف، وهي لا ترتبط بزمن، وكل ما في الأمر أن جديدا ما طرأ على نظرتنا إلى الأشياء فانعكس في تعبير غير مألوف".

وفي تعريف آخر على لسان أدونيس (علي أحمد سعيد) " الحداثة هي موقف معرفي أدى إلى تغيير نظام الحياة، وهذا الموقف المعرفي يقوم على أن الإنسان هو مركز العالم ومصدر القيم، وعلى أن مصدر القيم ليس غيبيا، وإنما هو إنساني"

و بالعودة إلى مجلة شعر يمكن القول بأنها لعبت دورا محوريا في نشر الحداثة الأدبية في العالم العربي من خلال التمرد على الأساليب التقليدية وتقديم أفكار وأشكال أدبية جديدة تعكس الواقع العربي المتغير، فكانت منبرًا هامًا للعديد من الأدباء من أمثال: أدونيس (علي أحمد سعيد، محمد الماغوط، أنسي الحاج، خالدة سعيد، خليل مطران...الخ والذين ساعوا إلى التجديد. وأسهموا في تطوير الأدب العربي الحديث من خلال ابتكار أساليب جديدة تعبّر عن الوعي الفردي والهموم الشخصية بعيدًا عن الأدب التقليدي.

وبالإضافة إلى مجلة شعر اشتهرت عدة مجلات خاصة بالحداثة من بينها:

مجلة الآداب الصادرة في بيروت سنة 1953/ مجلة أدب سنة 1962/ مجلة مواقف 1968/ مجلة حوار 1962.

ينظر:

- درقاوي كلثوم: محاضرات الحداثة في الأدب
- عبد الغني بارة: إشكالية تأصيل الحداثة.
- فتيحة كحلوش: المناهج النسقية
- محمد بن عبد العزيز بن أحمد العلي: الحداثة في العالم العربي دراسة عقدية
- ناصر عبد العزيز (محاضرات مقياس الحداثة في الأدب العربي)